

أمريكا وسياسة الهيمنة الإمبراطورية

2007/03/20

يختلف علماء السياسة والتاريخ حول دور أمريكا على الساحة الدولية، وفيما إذا كانت الولايات المتحدة قد لعبت دور الإمبراطورية المهيمنة عن سابق إصرار، أم أن الظروف الدولية أجبرتها على القيام بذلك الدور خلافاً لفلسفتها السياسية والأخلاقية. إذ هناك من يقول بأن أمريكا لم تلعب دور الإمبراطورية في أي يوم من الأيام، ومن يقول بأن الدولة الأمريكية ولدت وفي دمها رغبة كبيرة في تكوين إمبراطورية مهيمنة على أكبر جزء من العالم. إلى جانب ذلك، ليس هناك اتفاق عام بين فلاسفة السياسة حول مدى الاستفادة التي تجنيها الدولة المهيمنة من القيام بدور الإمبراطورية، وما إذا كانت عائدات الهيمنة تتجاوز، أو حتى تعادل تكاليف القيام بدور القوة المهيمنة وتحمل أعباء مسؤولية تشكيل نظام عالمي جديد وضمن الاستقرار له والأمن فيه.

رغم التباين الكبير في الآراء، ليس هناك شك في أن أمريكا، وبسبب طبيعة تركيبها السكاني، ولدت وفي دمها روح المغامرة والتحدي والتوسع على حساب الغير، وهي صفات حملها المهاجرون الأوروبيون الأوائل معهم إلى العالم الجديد منذ بدايات القرن السادس عشر. ولقد جاءت الموافف والممارسات العدوانية لأولئك المهاجرين ضد سكان البلاد الأصليين لتكرس الرغبة في ممارسة الهيمنة، حيث قاموا بالاستيلاء على أراضي الغير، ومصادرة حقوقهم، والعمل على التخلص منهم، وذلك إلى جانب استيراد السود من أفريقيا واستغلالهم في زراعة القطن وجني المحاصيل، واستخدامهم كعبيد وخدم في الإقطاعيات وبيوت الأثرياء.

ومن الكتب التي صدرت حديثاً وتناولت دور أمريكا على الساحة الدولية، كتاب روبرت كاجان، الأمة الخطرة: مكانة أمريكا في العالم من أيامها الأولى وحتى بدايات القرن العشرين. يقول الكاتب أنه منذ البدايات، قامت أمريكا - وهنا لا يشير الكاتب إلى أمريكا الدولة بقدر ما يشير إلى أمريكا الأمة - بالتعبد في محراب إله الحرب، مدفوعة بدوافع التوسع والطموح والمثالية والمادية في آن واحد. ويشير تاريخ الاستيطان الأوروبي في العالم الجديد إلى أن المهاجرين الأوائل كانوا يطمحون بتأسيس إمبراطورية تظاهي، بل وتتفوق على الإمبراطوريات الأوروبية التي جاؤوا منها. وهذا كان أحد الأسباب التي دفعت الأمريكيين إلى الثورة على بريطانيا وإقامة دولتهم في القرن الثامن عشر، والتوجه نحو الكسب المادي على حساب الغير، مدفوعين بحاجات وطموحات فردية وجماعية متنامية باستمرار. ولقد كان من نتائج تلك التطورات تشكيل ثقافة تقوم على الإنتاج المكثف والاستهلاك اللامتناهي، وأطماع مادية لا تحدها أخلاق، ولا تنظمها تقاليد أرستقراطية، ولا تسيطر عليها دولة مركزية، ولا تردعها قوة خارجية.

ويمكن القول أن "مبدأ مونرو" الذي أعلنه الرئيس الأمريكي اندرو مونرو في عام 1823، كان أول إعلان رسمي عن أطماع الدولة الأمريكية الفتية وتوجهها إلى الهيمنة على العالم. ولقد تضمن ذلك الإعلان القول بأن أمريكا تعتبر كل محاولة من قبل أية قوة أوروبية للسيطرة على دولة إسبانية - أمريكية، أي على دولة في أمريكا اللاتينية، توسعا عدوانيا عليها، وأن القارتين الأمريكيتين مغلقتان في وجه الاستعمار والاستيطان الأوروبي. كان إعلان مونرو، والذي جاء قبل مضي نصف قرن على استقلال أمريكا، تحدياً واضحاً للدول الاستعمارية التقليدية، أرسى أساساً واضحاً لسياسة أمريكية تقوم على التوسع، وتعتبر أن كافة دول أمريكا اللاتينية تقع ضمن منطقة نفوذها، وتعلن استعدادها لاستخدام القوة العسكرية لحماية تلك القارة من محاولات التوسع الأوروبي. وقبل انتهاء القرن التاسع عشر، كانت أمريكا قد استكملت بناء أسطول بحري وتجاري ضخم، وتدخلت في شؤون أكثر من دولة في أمريكا اللاتينية، واختلقت أعذاراً كافية لشن حرب ضد أسبانيا ومصالحها في القارة المجاورة.

حملت السياسة الخارجية الأمريكية، منذ البداية، رسالة متناقضة تقوم على عناصر تجمع ما بين المثالية والمادية والنزعة الاستعمارية، ولذا دأبت السياسة الأمريكية على الادعاء بأنها تدافع عن حقوق إنسانية، وتعمل على نشر قيم عالمية، وترسي أسساً دولية لحماية الأمن والاستقرار، وتدافع عن مصالح قومية أمريكية في آن واحد. وعلى الرغم من أن التركيز على تلك العناصر تفاوتت حدته بين إدارة وأخرى، إلا أن جميع الإدارات أعطت الأولوية للعامل المادي الذي تتطور بسرعة ليصبح جوهر الثقافة الأمريكية. إن كون الهدف المادي يجسد جوهر الثقافة الشعبية وأساس السياسة الخارجية أدى إلى تناقض السياسة الأمريكية وتضارب الآراء حول مدى انسجامها مع المفهوم الإمبراطوري من ناحية، وجعل المثالية تستخدم لإخفاء الجانب القبيح للمادية ولتبرير المطامع الاستعمارية من ناحية ثانية.

وتشير مجريات الأمور في العراق، ومبررات شن الحرب عليه أن المصلحة المادية والرغبة في الهيمنة على منطقة الشرق الأوسط الغنية بالبترو، كانت الدوافع الرئيسية لغزو العراق وإسقاط النظام الحاكم فيه وتدمير مؤسساته الرسمية.

يقول كاجان إن القوة العسكرية لا تدعم السياسة الخارجية فقط، بل تقوم بتحديد عناصرها، وانه كلما استحوذت أمريكا على قوة عسكرية إضافية كلما تعمق إحساسها باتساع نطاق نفوذها ومصالحها وتنامي استحقاقاتها. وكلما غدت المصالح في مخيلة الشعب وصانع القرار أكبر، كلما أصبحت المخاطر الخارجية - من وجهة نظر الدولة - أعظم وأخطر، وهذا بدوره يجعل الحاجة للاستحواذ على المزيد من القوة العسكرية لمواجهة المخاطر أكثر إلحاحا... وكلما استحوذت الدولة على المزيد من القوة العسكرية، كلما أصبحت أحلامها رغبات، وأصبحت رغباتها احتياجات، وغدت احتياجاتها حتميات، وتحولت الحتميات إلى إمبراطوريات. ويضيف كاجان أنه بينما كانت أوروبا تفقد رغبتها وقدراتها العسكرية على استخدام القوة لحماية مناطق نفوذها في العالم، والتوجه بدلا من ذلك إلى الاستمتاع بالاستقرار والرخاء، كانت أمريكا تتجه نحو بناء قوة عسكرية ضاربة وتستعد نفسيا وسياسيا لاستخدام تلك القوة دون تردد على نطاق دولي واسع.

وعليه يمكن القول أن الإمبراطورية، أي كانت أهدافها ودوافعها، تشكل خطرا على نفسها وعلى محيطها، وأن الحد من ذلك الخطر لا يتأتى إلا من خلال خلق توازن دولي يحد من إرادتها على استخدام القوة، ويطور قوانين دولية تحمي حقوق الدول الصغيرة والشعوب الفقيرة والمضطهدة، وتعمل على تأسيس نظام عالمي يقوم على العدل والإنصاف.